فيخت

١٧٦٢ ـ ١٨١٤

ولد (فيخت) سنة (١٧٦٢) في قرية (رامينو) ولم يكن أبوه ليقدر على القيام بأعباء تعليمه، فكفله أحد سادة القرية وأنفق في سبيل تعليمه ما أنفق؛ وبعد جهاد عنيف ودرس طويل دخل في العالم الفلسفي، فكان أول كتاب له (تجربة نقدية لكل وحي) وكتابه الثاني (تقويم أحكام الشعب على الثورة الفرنسية) وكتابه الثالث (نداء عام لأمراء أوروبا لكي يفكوا العقل من عقاله) وهذه الكتب الثلاثة وضعت (فيخت) في مصاف أرباب فلسفة النقد والثورة، وبعد هذا الإنتاج الطيب أعلن في محاضرة له قيمة مذهبه الذي وسمه بالمذهب العلمي، وهو الذي يرد به كل العلوم إلى مصدر واحد. وهذا المذهب أو هذه الثورة الفلسفية أطارت اسمه في الآفاق، حتى غدا حديث

المجامع النوادي. وقد أسند إليه منبر في (لينا) ليحاضر في الفلسفة، فسهل له هذا المقام أن يعاود شرح مذهبه وتفصيله من جميع نواحيه في كتبه العلمية، وكان خلال ذلك يواصل نشر مقالاته في (واجب العلماء) فهو يريد من العالم أن يسيطر على شؤون بلده، لأن العالم عنده ليس بالرجل الذي يملأ رأسه علماً وعرفاناً، ولا من يتخصص في مادة واحدة يذهب بها كل مذهب، ولكنما العالم هو الرجل الحر الذي اجتمعت له ثقافة عصره، وسما فوق مشاغل حياته اليومية، هو يريد أن ينقاد المجتمع للرجال الألمع ذكاء والأروع عقلاً.

وربما دفعه هذا المذهب ـ أضف إليه بعض مشاغل خاصة ـ إلى أن يقطع الكثير من دراساته المتواصلة، كان يحاول من ورائها أن يطبق مذهبه النظري على الأخلاق والحقوق والسياسة والدين، يقطع هذه الدراسات ملتفتاً إلى شؤون أمته المجروبة، وقد خطب الشعب كثيراً في

(برلين) بأسلوب تبدو فيها حماسة الفيلسوف وشدة تعلقه بوطنه، ومن خطبه خطبة ذكر فيها أسباب انحطاط أمته ووصف العلاج الشافي لهذا الانحطاط.

قال: (إن أسباب الانحطاط داخلية؛ لا يمكن أن تعزى إلى بأس الخصم وسيطرته، إنها تنجلي في خنوعنا ولين أخلاقنا، وفي أنانية مرشدينا وقوادنا، وفي إعجابنا وتقليدنا الأعمى للأجنبي الغريب. أما علاج هذه الأدواء فهو التربية المؤسسة على الفضيلة التي تشجع النفوس وتعلم الأرواح معنى التضحية. . . والوطن ما الوطن ـ عند فيخت ـ إلا خلود الإنسان على الأرض، أتلك صفة محمودة فيمن يرغب عن مؤازرة أخيه بعقله أو بعمله؟ من هو ذلك الإنسان الذي يبغي ألا يخلق في فراغ الأزمان شيئاً جديداً لم يمر بخاطر، ولم يقع عليه ناظر؟ هذا الشيء الذي يغدو مورداً لا ينضب لاكتشافات جديدة؟ ومن الذي لا يرضى بأن يفادي بمقامه في هذا الوجود ويتجاوز

من أجله القصير المقدر له لقاء بعض شيء سيخلد أبداً في هذه الأرض؟ أي خلق نبيل لا يرضى بهذا؟

ألا إن هذا الرضا لا يتمثل إلا لعيون الذين يعتقدون بأن الوجود كامل الصورة، ملائم كل الملائمة لحاجهم، وجامع لأمانيهم، ما خلق إلا لهم. وأصحاب هذه الفكرة هم عندي أصحاب هذا الوجود، وهم أصله ونواته. أما أولئك الذين ينظرون إلى الحياة غير هذه النظرة فليسوا إلا حشرات سحيقة تزحف في مسارب وجود سحيق)

وبينا كان فيخت يكسو فلسفته الآراء السامية، كان يعمل على أن يكسو نفسه أثواب السمو. ولكن الردى غاله ولما يؤد رسالته، فقضى نحبه سنة ١٨١٤ مستريحاً من جميع أوصابه.

فلسفته :

فلسفة (فيخت) هي فلسفة رجل لا يعرف للعقل والقوة الإنسانية حدوداً يقفان عندها . وقد كان ـ كانت ـ يرى أن معرفتنا تقوم على أن نوفق بين العقل الخارجي وبين نظام إدراكنا الداخلي ، وهو يرى أن وراء ما ندركه شيئاً قائماً بنفسه منسلخاً عنا لا يتطاول إليه إدراكنا . وما معرفتنا ـ عند كانت ـ إلا مظهر يتوارى وراءه السر الأبدي واللغز السرمدي . أما (فيخت) فهو يوقن بأن هذا المظهر نفسه هو الحقيقة ذاتها ، وهو وليد قوة (النفس) التي لا تنفد ، وذلك الشيء القائم بنفسه إن هو إلا حد يكبح قوة النفس ويحاول أن يقضي على سطوتها ، ولكنه حد يزداد أمره ضعفاً كلما استطاعت النفس أن تبرز من قوتها وتفرض شيئاً من سيطرتها على الوجود ؛ وبهذا كانت غاية العلم أن يتغلب العالم الداخلي وهو عالم العقل والروح على العالم الخارجي وهو عالم المادة .

والنقطة الأساسية لفلسفة (فيخت) هي هذه الذات التي يجعل منها (الفاعل المطلق) في هذا الوجود، لكن هذه الذات لا تكمل لها معرفة ذاتها إلا إذا قورن بينها وبين غيرها، وبضدها تتميز الأشياء. فإن تخصيصي مثلاً لوح لأن الأخص يستثنى من الأعم. وهذا الغير هو الذوات السارحة في هذا الوجود.

قد تيقظت الذات في إحدى خطراتها يوم أحست بنفسها فألفت أمامها سداً يقف سيرها. فوقفت وشعرت بأنها مقيدة، من ورائها ومن أمامها سدود، فأخذت تنظر إلى علة هذه الحدود وهذه السدود، فخالت أن هذه العلة كامنة في جواهر الأشياء، فأما الشعور العادي فهو يرى العلة في جوهر الأشياء، أما الفيلسوف فهو يعتقد بأنها كامنة في التحريض الذي تثيره الذات لبسط سلطانها على الأشياء، وتحقيق غايتها التي تطويها في صدرها. وهكذا

تجري حياة الكائن المفكر، فهو طوراً يصيب مركز الدائرة وطوراً يحيد عنه .

الذات تخرج من نفسها وتعود الى نفسها، ولكنها تعود أكثر قوة وغنى، وكل معارضة تلقاها في الخارج لا تزيدها إلا قوة ومضاء. وفي كل جزء من أجزائها تحس أن قوة حيوية جديدة تولدت فيها، ونهاية أربها أن تعلن فوز سلان العقل على المادة والطبيعة، أو كما يقول (فيخت) (اتحاد الذات مع غير الذات) وهذا الاتحاد أو هذا الامتزاج المطلق يجعله فيخت مثله لأعلى، ويراه الفيلسوف (هيجل) حقيقة من حقائق الوجود.

الذات السامية متمثلة في الله، والذات الآلهية هي الكمال الاعلى. والذات الانسانية تمثل ـ مجازياً ـ ما يمثله الله ـ حقيقياً ـ ولكنها يحدها الزمن وينتظرها الزوال. أما فاعليتها فباقية خالدة لتحقق مثلها الاعلى ولتدنو في الشبه

طوراً بعد طور ـ من الآلة. والآلة لا حق لنا في تمثيله ولا إثبات وجوده بما هو خارج عن كنهه، لأن تمثيله معناه تحديده وإبرازه على صورتنا الزائلة، وجعله وثناً له شأن الاوثان. وإثبات وجوده معناه أن نستعين بيقين مستمد من غيره في سبيل اثباته، مع أنه هو مصدر كل يقين وهو الفاعل المطلق.

موقفه من الدين

لم يؤثر شيء من النقد في نفس فيخت كما أثرت فيه تلك الوشاية التي أراد خصومه من ورائها أن يتهموه بالألحاد، وما زال الالحاد سيفاً يشهره العاجزون يهولون به على الأقوياء.

قابل (فيخت) هذه التهمة بابتسامة كئيبة، لأنه يعتقد أنه مضمر للدين عاطفة طيبة تشف عنها كتاباته ومقالاته، وإزاء هذه الوشاية أرسل إلى قومه نداء يدفع به عن نفشه

هذه التهمة الشنيعة، وهو نداء يطفح حرارة والتهاباً وإيماناً. قال فيه:)

(إن الرجل المتدين هو الذي يشترك في تمثيل سلطة الله على الأرض، ُائمة نفسه حق القيام بما يجب عليها من قواعد الأخلاق. يستحيل علي أن اتخذ لي هدفاُ وغابة هذه الحياة التي يتبرم الناس بهمومها وأفراحها. . . وإنما يجب على أن يكون لي غرض مباين لهذه الأغراض. . . إن الاشياء تقاسمنا ـ بحسب أهوائنا ـ أمانينا وميولنا، فهي تئن إذا أرغمها على الزهو مرغم وهي ترجو الانعتاق إذا أمسك الحرية عليها مسك، وهذا الأمل المتوقد في ما هو أسمى وأرفع وفي ما هو أبقى وأخلد، وهذه السآمة من الأشياء الزائلة الفانية، كل هذه هي عواطف لاصقة بقلب الانسان! ووراء ذلك صوت لا يمكن لبشر أن يخنقه إذا علا وارتفع في صدر الانسان، يوحي عليه أن هنالك واجباً فرض عليه أن يقوم به لأنه هو الواجب والإنسان الذي لا

مفـر لـه إلا إلى نفسـه يسـمع ذلـك الصـوت ويـردد معـه (ليمنعني مـا يمنـع! فـإنني لقـائم بـواجبي حتـى لا يكـون هنالك لائم) وهذا الحل الذي وجده هو الذي يجعله محتملاً لهبة الحياة إذا استلمها، ولانتزاعها منه إذا فقـدها، يقـول بنفسه. .

أريد أن أنجز أيامي لأن الواجب يدعوني إلى ذلك. . . أريد أن اتمم ما تطلب الحياة مني وما تفرضه علي. . . إن الحياة مقدسة عندي! وما قدسها إلا حب الواجب.)

ويرى فيخـت وجـوب توحيـد الاخـلاق والـدين لأن غايتهما واحدة ووجهتهما واحدة. فالدين بغير أخلاق مـا هو إلا مظهر خارجي يغـذي العقـل بالأوهـام والأسـاطير دون أن يرقي به إلى ناحية من نواحي الكمـال. والأخـلاق بغير الدين تتركنا نجتنـب الشـقاء خشـية عاقبتـه، دون أن نغرس في نفوسنا حـب الخـير لنفيـه. ألا لـيكن دسـتورك

الشريف في حياتك أن تريد ما يجب، وأن تظهر إرادتك من أدران هذا العالم، وتنقذ وجودك منها ليتسنى لك العروج الى عالم هو أسمى من عالمنا الحاضر، أن تصرف نفسك عن هذه الحياة الى الحياة الهادئة السعيدة.

ويقول أيضاً: (إن مزية الرجل المتدين الحقيقي في مذهبي هي أن تكون له رغبة واحدة تحدوه، وفكرة واحدة تسوقه، صلاته هذه الآية: (ليأت ملكوتك) وفي غير ذلك لا يتسع صدر لشيء، ولا تسمى قدماه إلا في سبيل واحد يدينه من غايته ولا يطيع في كل ما يأتيه من عمل إلا صوت ضميره.

على أن روح فيخت الدينية بدأت تبدو كثيراً في كتاباته الاخيرة التي أراد بها توضيح مذهبه. ففي كتابه (الموجز) نرى نزعته الفكرية التي تؤمن بأن الله قد أناب منباه (الذات المطلقة) على الأرض، وأن نهاية هذه (الفاعلية) الانسانية

تفنى في وحدة تمزجها مع الالوهية. وفي كتابه (غاية الانسان) يعلن فيخت بأن حقيقة العالم الخارجي بعيدة عن الوضوح والبيان، ولكن في الامكان تعليلها بطريقة من طرق الايمان، أليس هو شعورنا الذي يحفزنا الى معرفة (حقائق الأشياء الخارجة عنا) وهي كائنات لها وظيفتها في الوجود كما لنا وظيفتنا، وأرانا مضطرين إلى إسعافها في إكمال وظيفتها.

وفي كتابه (معرفة الحياة السعيدة) يبحث مسألة الاتحاد مع واجب الوجود، وقد يكون في استطاعتنا القول أن هذا الاتحاد قد يكون اتحاداً صوفياً (يمثل فناء المحب في المحبوب) لو لم ينبهنا فيخت الى أن هذا الاتحاد ليس باتحاد فارغ ـ كما نتمثله ـ وإنما هو اتحاد ملائم لجبلة الله. وإنما الرجل المتدين عنده هو الذي يؤمن ويضع رجاءه ـ لا في الله ـ لأنه يحمل الله في قلبه، ولكن في الانسانية التي يجاهد في سبيل إسعادها وكمالها قيمته الفلسفية.

أجمع النقاد على أن فلسفة فيخت ليس لها ذلك الالتئام والاتحاد اللذان تمتاز بهما فلسفة (كانت)، وإنما هي قوة منبعثة يجهل بواعثها فيخت نفسه. قد لا تتفق وجوهها إلا بجملة امتيازات خاصة لو تأملها متأمل عن كثب لرأى ركاكتها ولمس ضعفها، فالذات في نظره هي الفاعل المطلق، ولكن فيخت يسند إليها هذا الأطلاق وهي ليست بالمطلقة، وكيف تكون مطلقة وحولها ذوات ثيرة مثلها، كل ذات منها مطلقة في نفسها؟

إن قيمة فلسفة فيخت لا تتمثل حقيقة فيما اتسقت وابتدعت ـ في عوالم النفس ـ فهي لم تكتشف شيئاً، ولم تكشف عن شيء في المسائل العلمية، ولكن هذه الفلسفة ستبقى مطبوعة بصفة لاتبلى، هي سر كل بقائها وعظمتها

قد يأتي يوم يفقد فيه (كانت) كل مناصر، ولكنه لن يفقد بعض آراء مثمرة جديدة لها خطرها فيما أبدعت،

(وفيخت) لن يفقد بعص صفحاته النقية وبعض آرائه السامية. وهب أنه فقدها، فهو لن يفقد ذلك المثل الأعلى الذي هام في طلبه طيلة حياته، وكان أبلغ واسمى ما تجلى به مذهبه أن الأنسان الأخلاقي ـ في فيخت ـ يغلب على الأنسان الفيلسوف! والأنسان الأخلاقي ـ في فيخت ـ يغلب عليه وسمو عليه النسان وحده. . .

obeikandl.com